﴿إِنَّا قَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡنَآ أَنَّ ٱلۡعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ٤٨﴾ [طه: 48]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بيان جزاء المكذّبين إثرَ بيانِ جزاءِ المهتدين

لَمَّا خُتِمت الآيةُ السَّابقة بقوله: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ﴾، وهي دعوةٌ لفرعون إلى الإيمان باللّه وبصفاته وطاعته في أوامره ونواهيه؛ جاءت هذه الآية: ﴿إِنَّا قَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡنَآ﴾؛ لتحذير من كذّب موسى وهارون عليهما السلام، في رسالتهما الّتي حملاها من ربّهم، من عقاب اللّه له في الدّنيا والآخرة.

ومنها: لَمَّا قال تعالى في الآية السَّابقة: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ﴾؛ بيَّن هنا سبيلَ مَن لم يتّبع الهدى، وهو كلّ مَن كذّب وأعرض عنه، فقال مُخبرًا ومُعلّلًا: ﴿إِنَّا قَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡنَآ أَنَّ ٱلۡعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾: (ولي) أَصْلٌ يَدُلُّ على قُرْبٍ، مِنْ ذلك الوَلْيُ: القُرْبُ، يُقالُ: تَباعَدَ بَعْدَ ولْيٍ، أي: قُرْبٍ، وجَلَسَ مِمَّا يَليني، أي: يُقارِبُني[1]، والوَلايَةُ: تَوَلّي الأمرِ، فإذا عُدّي (تَوَلَّى) بنفسِه اقتَضَى معنَى الوَلايَةِ، وحُصولِه في أَقْرَبِ المواضِعِ، وإذا عُدّي بـ (عَنْ) لفظًا أو تقديرًا، اقتَضَى معنَى الإعراضِ وتَرْكِ قُربه، فمِنَ الأوَّل قوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ﴾ [المائدة: 51]، ومِنَ الثَّاني قوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُفۡسِدِينَ ٦٣﴾ [آل عمران: 63][2]، والمُرادُ بالتَّولي في الآيةِ: الإعْراضُ والإدبارُ، وهو مُستعارٌ هنا للمُكابرةِ والعِنادِ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ولي).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/ 102.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

من البيان المؤثّر في أسلوب الدّعوة، أنّ العذاب على المُكذّب المُعرِض

بيّنت هذه الآيةُ خطابَ موسى وهارون ﷺ إلى فرعون، لمَّا علما عدمَ إيمانِه وتماديَهُ في الباطل؛ فقالا له: إنَّا قد أوحَى اللّهُ إلينا أنَّ عذابَه في الدُّنيا والآخرةِ على مَن كذَّب بالحَقِّ، فلم يؤمِنْ باللّه وما جاءَتْ به رسُلُه، وأعرَض عنِ اتِّباعِ الحَقِّ، وطاعةِ اللّه[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة فصل هذه الآية عمَّا قبلها:

الآية مفصولةٌ للاستئناف البيانيّ، ممَّا له أثرٌ في المعاني

قوله تعالى: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَآ﴾ هي جملةٌ تعليليّةٌ لمضمون الآية السَّابقة، فكأنّه قيل: ولماذا تدعوانِ فرعونَ إلى الهدى؟ فكان الجواب: لأنَّا ﴿قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَآ﴾[2]، ويجوز أن تكون الجملةُ من مقول القولِ الّذي أمرَهما أن يقولاه لفرعون؛ أي: قولا له: والسَّلامُ على مَنِ اتَّبَعَ الهُدَى، وقولا له: إنَّا قَدْ أوحيَ إلَيْنا[3].

بلاغة التّعريض في الآية الكريمة:

التّعريض بفرعون كي يحذرَ التّكذيب، لو كان ذا عقلٍ أريب

قوله تعالى: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾، فيه تعريضٌ بفرعون؛ لإنذاره على التّكذيب قبلَ حصوله منه؛ ليتمكّن الرّسولان من تبليغ الرّسالة على أتمّ وجهٍ، قبل ظهور رأي فرعون في ذلك، حتّى لا يُجابهَه بعدَ ظهور رأيه، بتصريح توجيه الإنذار إليه[4].

دلالة التّأكيد بـ﴿إِنَّا﴾ و﴿قَدْ﴾:

التّأكيد ترهيبٌ له أثرُه البالغ على فرعون، في منطق الحوار

أُكِّدت جملةُ الإنذار بمُؤكّدَين، هما ﴿إِنَّا﴾ و﴿قَدْ﴾؛ تأكيدًا لصدقهما فيما يُنذِران به، وتمهيدًا لشِدّة المُنذَر به، وهو ﴿ٱلْعَذَابَ﴾ الشّديد في الدّنيا والآخرة، وفي التّأكيد ترهيبٌ له أثرُه على فرعون،

(1) ابن جرير، جامع البيان: 16/ 78، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 11/ 204، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 506.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 293، والآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 512.

(3) الجمل، حاشيّة الجمل على الجلالين: 3/ 94.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 230.

بدليل أنّه انتقل إلى الاستفهام لطلب المعرفة عقبَ ذلك، ولو كان ذلك استكبارًا: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾.

سِرّ التّعبير بالوحي في قوله: ﴿أُوحِيَ﴾:

التّعبير بالوحي في قوله: ﴿أُوحِيَ﴾ يدلّ على قوّة الموحَى وأهميّته، كما يدلّ على انتفاء الغرض لدى المُبلِّغ، إذ إنّه مُجرّد رسول، كما جاء في قوله سبحانه: ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [المائدة: 99].

الـدّلالـة على أهميّة الموحَى به، في السّياق المُحكم

سِرّ بناء الفعل ﴿أُوحِيَ﴾ للمفعول:

"بُنِيَ ﴿أُوحِيَ﴾ لِما لَم يُسَمَّ فاعِلُهُ، ولَم يُذْكَرِ الموحي؛ فلم يقل: (منْ رَبّي)؛ لأنّ فرعون لا يعترف بالرّبوبية في الظّاهر، ولِأَنَّه كانَتْ لَهُ بادِرَةٌ، فرُبَّما صَدَرَ مِنْهُ في حَقِّ الموحي سبحانه ما لا يَليقُ بِه"[1]، فاحتَرزا منَ التّصريح به صيانةً للاسم الجليل من سفاهة فرعون، واستهانة بالمُخاطَب.

صيـانـةُ الاسـم الـجـلـيـل مـن سفاهة فرعون، والاسـتـهـانـة بالمخاطَب

دلالة تعدّي فعل ﴿أُوحِيَ﴾ بـ ﴿إِلَيْنَآ﴾ دون اللّام:

عُدّيَ الفعلُ ﴿أُوحِيَ﴾ بـ﴿إِلَيْنَآ﴾ دونَ (اللّام)؛ لما في (إلى) من معنى الإيصال وبلوغِ الغاية، وهذا هو مقصد إرسالِ موسى وهارونَ عليهما السلام إلى فرعون؛ بخلاف اللّام فلا تؤدّي معنى الغاية، بل قد يُفهَم منها معنى الاختصاص، كأنّ الوحي لهما لذاتهما لا للبلاغ إلى فرعون، ولأنّ الفعل ﴿أُوحِيَ﴾ إذا تعدّى باللّام كان معناه التّسخير، قال تعالى: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥﴾ [الزلزلة: 5] أي: ألهمها، أو أذن لها ربُّها بالشّهادة؛ فتشهد[2].

معنى (إلينا) الإيصال وبلوغ الـغـايـة، في سياقها المدرج

دلالة التّعبير بقوله: ﴿إِلَيْنَآ﴾:

دلّ التّعبير بقوله: ﴿إِلَيْنَآ﴾ على الشّراكة بين موسى وهارون عليهما السلام، في الرّسالة والوحي.

هـارونُ مكلّفٌ مع أخيه موسى بـالاشـتـراك معه في الدّعوة والبلاغ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 339، والشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 6/ 204.
(2) الزّجّاج، معاني القرآن: 2/ 210، والماتريديّ، تأويلات أهل السنة: 10/ 598.

دلالة التّعبير بالعذاب دون العقاب:

العذاب هو الألم الموجِع المُستمرُّ، والعقابُ قد لا يكون كذلك

عبَّر بالعذاب في قوله: ﴿أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾؛ لما يدلّ عليه من معنى الإيلام والوجع المستمرّ، أمَّا العقاب فقد يكون قويًّا مؤلمًا، وقد لا يكون كذلك؛ لأنّ المقصود به ما يقع من جزاءٍ عقيبَ فعلٍ معيّن[1]، ثمّ هو بحسبه من حيثُ الشّدّة والإيلام أو عدَمُه، والتّعبير بـ ﴿ٱلْعَذَابَ﴾ موافقٌ بهذا المعنى لما كان يفعله فرعون ببني إسرائيلَ؛ مِن سَومِهم سوءَ العذاب، كما ذكرت ذلك آياتُ القرآن، ومنها قولُه: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَـٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ [البقرة: 49]، وأيضًا هو موافِقٌ لما قصّه القرآنُ في عذاب آل فرعون بقوله تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر: 46].

دلالة (أل) في لفظ ﴿ٱلْعَذَابَ﴾:

(أل) في قوله: ﴿ٱلْعَذَابَ﴾ في لفظ (العذاب) للاستغراق أو الماهيَّة، وكلاهما مُعبّرٌ عن المراد

، إمَّا أن تكون للاستغراق أو الماهيَّة، وعلى التّقديرين يقتضي قدر ثبوتِ هذا الجنس ودوامه؛ لما تُفْهِمُه الاسميّة ﴿عَلَىٰ﴾ كلّ ﴿مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ أي: أوقع التّكذيبَ والإعراض[2]، فيشمل لفظ ﴿ٱلْعَذَابَ﴾ هنا - على كونه للجنس - العذابَ الدّنيويّ والأُخرويّ[3].

سِرّ البَدء بالتّخويف بالعذاب في دعوة فرعون:

في قصّة فرعون غَلَبَتْ عليه شِقوتُه، وطغت نوازعُ الشّرّ فيه فأهلكته

ابتدأ موسى وهارون عليهما السلام الدّعوةَ بالجُزْء المَخوف منها، وهو العذاب لمَن تولّى وأعرض ونأَى بجانبه عنِ الدّعوة؛ وذلك لأنّ الجبابرة يُرهبُهم الأمرُ المُغَيّب عنهم ويُفْزِعُهم، فيحاولون من بعد إرهابهم الاستماعَ إلى القول، وإن كانت عاقبةُ الاستماعِ في

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 239.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 293.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 19.

الاستجابة غيرَ محقّقةٍ، فالشّرّ يُنازِع نفوسَهم، ويقاومُ الخيرَ، فأيُّهما غلبَ كانت العاقبةُ له[1].

دلالة إطلاق العذاب في الآية دونَ تقييد:

إطلاق ﴿ٱلۡعَذَابَ﴾ في قوله: ﴿إِنَّا قَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡنَآ أَنَّ ٱلۡعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ يفيد العمومَ، دونَ تقييدٍ بالدّنيا أو الآخرة، قال تعالى: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلۡأٓخِرَةِ وَٱلۡأُولَىٰٓ ۝٢٥ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰٓ ۝٢٦﴾ [النّازعات: 25 - 26][2].

ملمَحُ الشّمول والعموم، يستوعِبُ الحياتَين العاجلةَ والآجِلة

دلالة التّعبير بحرف الاستعلاء ﴿عَلَىٰ﴾:

التّعبير بحرف الاستعلاء ﴿عَلَىٰ﴾، دالٌّ على تمكّن العذابِ الشّديد المستمرّ، ممّن كذّب وتولّى.

مَن كذّب وتولّى، فبنارِ العذابِ سوف يُصْلَى

سِرّ التّعبير بـ ﴿مَن﴾ في قوله: ﴿مَن كَذَّبَ﴾:

دلَّ التّعبير بـ ﴿مَن﴾ الموصولة في قوله: ﴿مَن كَذَّبَ﴾، على إفادة العموم، وليس على فرعونَ وحدَه، فكلُّ مَن كذّب وتولّى قد حَقّ عليه هذا العذاب.

ليس فرعون مخصوصًا بالعذاب؛ بل كلّ من كذّب يعذّب بالنّار

سِرّ التّعبير بالتّكذيب في قوله: ﴿كَذَّبَ﴾:

في التّعبير بقوله: ﴿كَذَّبَ﴾ تعريضٌ بفرعون؛ لكونه قد وقع منه التّكذيبُ بموسى عليه السلام وبما جاء به.

في الكلمة تعريضٌ بفرعون؛ لكفرانه وطغيانه

سِرّ التّعبير بالتّولية وعطفِها على التّكذيب:

الواو في قوله: ﴿كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ عاطفةٌ؛ للجمع بينَ التّكذيب والتّولّي، والتّوليَة: هي الإعراض بعدَ التّكذيب، وفي التّعبير بها تعريضٌ بفرعون؛ لكونه قد وقع منه الإعراضُ عن موسى عليه السلام، وعمَّا جاء به منَ الوحي الصّادق.

فرعونُ جمع بينَ التّوليَة والتّكذيب، ولم يُفِدْه ترغيبٌ ولا ترهيب

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4733.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 231.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الكذب والافتراء:

الكذب أعـمّ مـنَ الافـتراء، والافـتراء أشـدُّ الـكـذب، وهـو أخصّ منه

الكذب: هو كلّ خبرٍ مُخْبِرُه على خِلاف ما أخبرَهُ[1]، والافتراء: العَظيم من الكَذِب، يُقال لمَن عمل عملًا فبالغ فيه: إنَّه ليَفْري الفِرَى، ومعنى افترى: افتعل واختلق ما لا يَصحُّ أَن يكون؛ وما لا يَصح أَن يكون أَعمُّ مِمَّا لا يجوز أَن يُقال، وما لا يجوز أَن يفعل[2]، وبذلك يُعْلَم أنّ الكذب أعمّ منَ الافتراء، والافتراءُ أخصّ منه.

التّولّي والإعراض:

الإعراض والتّولّي كلاهما من بابٍ واحدٍ، وإن كان الإعـراضُ أسـوأَ حالًا

الإعْراض: وهوَ أَن تولّي الشَّيْءَ عَرْضَكَ، أَي: جانِبَكَ، ولا تُقْبِل عليه، وهو الانْصِراف عَنِ الشَّيْء بِالقَلْبِ.

والتّولّي: الاعراضُ مُطلقًا، ولا يلْزمه الإدبار، فإنّ تَوَلّي الرَّسولِ ﷺ المذكور في قوله سبحانه: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١﴾ [عبس: 1] عن ابْن أمّ مَكْتوم لم يكن بالإدبار، والتّولّي بالإدبار، قد يكون على حَقيقَته، كما في قوله تعالى: ﴿بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ ۝٥٧﴾ [الأنبياء: 57]، وقد يكون كِنايَةً عَنِ الانهزام، كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ۝٢٥﴾ [التّوبة: 25]، وقد يكون لحاجَةٍ تَدْعو إِلَى الانْصِراف مَعَ ثُبوت العقد.

وقال بعضهم: المُعْرِض والمُتَوَلّي يَشْتَرِكانِ في ترك السّلوك، إِلَّا أَنّ المُعْرِض أَسْوَأُ حالًا؛ لِأَنّ المُتَوَلّي مَتى نَدِم سَهُل عليه الرُّجوع، والمُعْرِض يحْتاج إلى طلب جَديد، وغايَة الذَّمّ الجمع بَينهما، والتّولّي إذا تعدَّى بـ (إلى) يكون بِمَعْنى الإقبال، وعليه قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ﴾ [القصص: 24]، وإذا تعدَّى بـ (عن) لفظًا أو تَقْديرًا اقْتضى معنى الإعراض وتركِ القُرب، وعليه قولُه تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ۝٦٣﴾ [آل عمران: 63][3].

---

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 45، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 742.
(2) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 154.
(3) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 309، والرّاغب، المفردات: (ولى).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثاني والثلاثون،
سورة طه من الآية 36 إلى الآية 131
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثاني والثلاثون، سورة طه من الآية 36 إلى الآية 131
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 32 ، 808 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-74-7
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 32 : المجلد الثاني والثلاثون، سورة طه من الآية 36 إلى الآية 131.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-74-7
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4565158 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»